ملاحظات قارئ

من وحي "كتابات"

مساهمة في إغناء الحديث عن شراء الذمم الإعلامية والثقافية:

1. نقلاً عن أوساط فكرية وأكاديمية عربية موثوقة أن أستاذاً جامعياً مصرياً يتميز بالنزاهة الأكاديمية والثقافية تلقى ذات مرة عرضاً للكتابة دون شروط في إحدى المجلات الخليجية الشهرية، فكتب بحثاً موجزاً في مجال اختصاصه حصل مقابله دون إبطاء على مبلغ ألف دولار. وبعد انتظار دام أكثر من شهر, لم يبق فيه من الألف دولار ولا سنتاً واحداً, لم ينشر البحث، فاتصل الدكتور بالمجلة مستفسراً عن أسباب عدم النشر, فقيل له: سينشر قريباً، وطلب منه أن يواصل الكتابة على نفس المنوال، فبادر صاحبنا وكتب بحثاً آخر تلقى مقابله هذه المرة، ودون إبطاء أيضاً، مبلغ الفي دولار. لكن... بعد مرور شهر آخر لم ينشر أيٌّ من البحثين، وخلال هذه الفترة كان أستاذنا قد صرف المبلغين لقضاء حاجاته المتراكمة ووعد عائلته وأبناءه الجامعيين بالسمن والعسل، وربما إقترض بعض المبالغ على حساب ما هو أتٍ، وقد لاحظ محيطه الإجتماعي ومحيط أولاده الجامعي بعض التغيير الذي طرأ على حياتهم.
على كل حال، إتصل الدكتور بالمجلة، فقيل له هذه المرة: نحن بصدد نشر بحثك الأول، ولكن لدينا بعض الملاحظات سنرسلها إليك قبل النشر. صعق الدكتور النزيه صعقة خفيفة ودبّ فيه القلق بانتظار الملاحظات.
بعد أيام وصلت الملاحظات ومعها طلب بمواصلة الكتابة. قرأ الدكتور الملاحظات فوجد فيها أن إدارة المجلة طلبت بعض التغييرات التي تلوث نزاهته الأكاديمية، وبعضها التي لا يرتضيها لو تركت له حرية الكتابة، ففكر على الفور بسحب البحثين، إلا أن كرامته أبت عليه ان يسحب المقالين دون أن يعيد المبالغ. ولكن من أين؟ سأل نفسه، وماذا بشأن عائلته وأولاده الذين ذاقوا بعض الترف خلال الأشهر الماضية؟
وبعد صراع داخلي لانعرف كنهه ولامدى حدته, لم يجد جواباً سوى إجراء بعض من هذه التغييرات التي لا يرتضيها, ولكنها لا تلوث فعلاً نزاهته الأكاديمية وقررترك الملاحظات الأخرى, فوافقت المجلة ونشرت البحث.
فرح صاحبنا وكتب بحثاً آخر تلقى مقابله الفي دولار أخرى. لكنه بعد أسبوعين تلقى طلبات على شكل تمنيات بإجراء تغييرات على بحثه الثاني فاضطر, بعد صراع داخلي آخر, أن يفعل. أمّا مقاله الثالث فقد أجري عليه التعديل دون العودة إليه, ولكن قبل ذلك وصله مبلغ جديد بألفي دولار أخرى.
وهكذا... سبعة آلاف دولار وألفا دولار مرتقبة كل شهر كانت كافية لإسقاط المسكين في براثن الخبث... بالتدريج.

2. في مجلة كويتية مشهورة يفترض أنها تتميز بالرصانة والحرص على ثقافة عربية سليمة كتب أحد الصحافيين العرب ذات مرة ما مضمونه:
"إن دعوة السلطان قابوس العُمانيين لتحديد النسل دلالة على فحولة الشعب العُماني، أمّا دعوة صدام حسين العراقيين إلى زيادة النسل، فتدل على عقمهم"
أي انحطاط هذا؟ وأي إرتزاق؟ وأي مجلة نظيفة تلك وإعلام يهاجم الإرتزاق والمرتزقة؟

3. عندما استلم رجل المال والأعمال اللبناني- السعودي رفيق الحريري رئاسة الحكومة اللبنانية في منتصف تسعينيات القرن الماضي، وهو زمن ليس ببعيد، خاض معركة قاسية لتدجين الوسائل الإعلامية، بحد المال تارة وبحد التشريعات تارة أخرى، وفسح المجال أمام رأس المال السعودي لشراء ما أمكن مما هو موجود ومؤسس من الوسائل الإعلامية، أو تأسيس الجديد منها، مقابل الصمت، إن لم يتسن المديح.

4. لا أعتقد أن شراء الذمم يقتصر على الجانب الإعلامي فقط، وأرى أن المؤسسات الدينية ذات الطابع الثقافي والسياسي، والعاملة بأموال دول عربية معروفة، تمارس دوراً تدجينياً وتضليلياً أخطر مما تمارسه العديد من الصحف العربية الممولة من ذات الدول, والصادرة في عواصم دولية مختلفة, ونرى على صدر صفحاتها أسماء كتاب يهاجمون الإرتزاق في مكان ويغضون الطرف عنه في مكان آخر .

لم أرد تكرار ما كتبه بعض الأخوة عن الأموال العراقية التي بددها النظام الديكتاتوري السابق في شراء الذمم الإعلامية، ولكنني أردت فقط أن أفتح العين الأخرى التي يصر البعض على إغلاقها، في حين, كلنا، تحت هذه الأنظمة، في الهم شرق، والإيمان في شرقنا خرس، كما قال إميل حبيبي.

جواد الساعدي
12.05.2003